هوامش

لطالما اعتُبرت النقوش الصخرية من أهمّ المصادر البصريّة القويّة التي يستعين بها المُؤرّخ من أجل تبيان المسرح الحضاري الذي عاش فيه إنسان ما قبل التاريخ

نقوش صخرية أثرية في مدينة فجيج (أو «فكيك» بالأمازيغيّة) في شرق المغرب (Getty)

النقوش الصخرية

تفكير إنسان ما قبل التاريخ في الفن

الرباط ـ **أشرف الحساني**

تُشكّل النقوش الصخرية مصدراً مهمّاً من مصادر الكتابة التاريخيّة العربيّة، باعتبارها وثائق بصريّة مُذهلة شاهدة عن أزمنةٍ سحيقة مرّت فيها المنطقة العربيّة. لكونها تكشف بشكلٍ دقيقٍ عن فنون وممارسات إنسان ما قبل التاريخ ومُشاهداته اليوميّة في التّرحال والصيد والشعائر الدّينية. لذلك، فإنّ أغلب نقوش الفنّ الصخري، يغلب عليها تصوير الحيوانات، التي تتميّز بكبر حجمها وعُنفها وقوّتها وتغوّلها في الطبيعة. وتُمثّل هذه النقوش تراثاً فنياً لا ينضب، وتُعدّ من أجمل التحف الفنّية التي تزخر بها المنطقة المَغاربيّة، لأنّها تضعنا بشكلٍ مُباشر مع تفكير المنطقة وترصد لنا تخوّفَ وأفراح وهواجس الإنسان القديم في علاقته بالطبيعة وتغيّرات المناخ. فقد ساهم اختلاف المجال الجغرافي الذي يُميّز المنطقة المَغاربيّة في بروز نقوشٍ صخرية مُختلفةٍ ومُتباينةٍ، إذ لا تكشف فقط عن السياق التاريخيّ الذي مرّ فيه هذا الحيّز الجغرافي، بل نمط التفكير وأنواع الحيوانات التي عمّرت هذه البقعة الجغرافيّة. لذلك لطالما اعتبرت النقوش الصخرية من أهمّ المصادر البصريّة القويّة، التي يستعين بها المُؤرّخ من أجل تبيان المسرح الحضاري الذي عاش فيه إنسان ما قبل التاريخ، نظراً إلى انعدام وثائق تاريخيّة، تُؤكّد صحّة ونجاعة بعض الأحداث التاريخيّة من عدمها، لا سيما أنّ الأمر يتعلّق بملايين السنين، ما يجعل بعض الروايات الشفوية أو حتّى المكتوبة المُتناقلة عبر العصور، غير دقيقة ولا تُقرّب القارئ إلى طبيعة الحياة اليوميّة لإنسان ما قبل التاريخ، حتّى لو كانت فكّاً أو عظماً أو بقايا جسدٍ متناثر في المَغارات والكهوف والساحات.

غير أنّ قيام بعض الباحثين العرب والأجانب بالعديد من العمليات الأركيولوجية منذ بداية الألفية الجديدة، أكّد أنّ المغرب، يُعدّ في طليعة البلدان العربيّة، التي تعرف نموّاً مُتزايداً من حيث العثور على مواقع النقوش الصخرية، بحكم تنوّعها وغزارتها داخل المجال الجغرافي المغربيّ، ما جعل الجهة الرسميّة الوصية على الشأن الأثريّ في المغرب، تعمل جاهدة على الحفر في هذه المواقع وتكثيف الدراسة عنها واعتبارها بشكلٍ رسميّ مواقع أثريّة تستحقّ كلّ أشكال المُعاينة والاهتمام، بعدما كانت أشبه بفضاءاتٍ عموميةٍ مفتوحة في وجه الناس يلعب فوق زخارفها الأطفال ويتجوّلون بمحاذاتها، من دون أيّ عنايةٍ أو رقابةٍ حتّى.

غير أنّ إلحاح بعض الباحثين الأركيولوجيين من جهة، والاكتشافات المُذهلة والمُثيرة، جعل الجهة الوزارة الوصية تبذل مجهوداً مُضاعفاً من أجل ترميم هذه الفنون الصخريّة وتسهر على رعايتها وتثمينها وتأريخها داخل كتالوغاتٍ فنّية، لما تُضمره من أهميّة بالغةٍ بالنسبة للتراث الأثريّ في المغرب والسبق التاريخيّ لهذا البلد داخل بلدان حوض البحر الأبيض المُتوسّط وعلاقات الفنّي والتأثّر الجمالي بين هذه البلدان إبان فتراتٍ تاريخيّة سحيقة، ظلّ فيها الإنسان القديم مُفكّراً في الفنّ ونقوشه على الصخر، باعتبارها وسيلة تسلية من جهةٍ، وتواصل فعّال مع الأجيال القادمةٍ من جهة أخرى. وتختلف هذه النقوش من موقع أثريّ إلى آخر، إذ يحرص الأركيولوجيون على التمييز في الفنّ الصخري بين نوعين من الأشكال، الأوّل يُسمّى بـ «النقوش الصخرية»، حيث نعثر على نماذجه وجدارياته كعبارة عن رموز وأشكال وعلامات في فضاءاتٍ مَفتوحةٍ قريبة من الناس ويتردّدون عليها دوماً. ذلك أنّ هذا النوع الفنّي، يُعدّ الطور الأوّلي التقليدي للفنّ الصخري، حيث يُسجّل الأثريون والمُتخصّصون نوعاً من التعلّم في كاليغرافية الخطوط والعلامات وتموّجها على الصخر. أمّا النوع الثاني، فهو الرسوم الصباغية وتُشكّل مرحلة مُتقدّمة من الفنّ الصخري، حيث نعثر على الفنّان القديم وقد وضع عدّة ألوان على رسومه، وانتقل ضمنياً من تصوير الحيوانات الضخمة إلى أشياء صغيرة ذات علاقة بحياته اليوميّة. فهذا النوع لا نعثر عليه إلاّ داخل الكهوف والمغارات، وكأنّ الفنّان أراد أن يحمي رسومه الصباغية المُتفرّدة من عنف الطبيعة والإنسان.

تتميّز الفنون الصخرية في كونها تسحر عين المُشاهد، وتجعله يُفكّر في دلالات هذه المُمارسات القديمة، وما إذا كان من المُمكن اعتبارها فنّاً بالمفهوم المُتداول في الحقبة المعاصرة. لكنّ المُدقّق في طبيعة هذه اللوحات البصريّة الموجودة في مناطق جغرافيّة مَفتوحة على الفضاء العام، قد يصاب بالذهول من قُدرة الفنّانين القدامى على التخييل وتصوير طبيعة الحياة اليوميّة، إذ تتوفّر على جميع المُقوّمات الجماليّة، التي تجعل من هذه النقوش الصخرية أفقاً فنياً أصيلاً مُرتبطاً بسياقٍ تاريخيّ مُعيّن، لم يكُن الإنسان يُفكّر أو يقوى على العيش فيه بسهولة.

باختصار

النقوش تضعنا بشكلٍ مُباشر مع تفكير المنطقة وترصد لنا تخوّف وأفراح وهواجس الإنسان القديم في علاقته بالطبيعة وتغيّرات المناخ

■■■

المغرب يُعدّ في طليعة البلدان العربيّة، التي تعرف نموّاً مُتزايداً من حيث العثور على مواقع النقوش الصخرية

■■■

تتميّز الفنون الصخرية في كونها تسحر عين المُشاهد، وتجعله يُفكّر في دلالات هذه المُمارسات القديمة

وأخيراً

من بنت شفة إلى بنت هاتف

محمود الرحبي

يحدُث حين تلتقي مباشرة صديقاً فيسبوكياً كان يراسلك بوفرة عبر «ماسنجر»، أن يقعد أمامك صامتاً، ثم بالكاد ينطق ببنت شفة. أتذكّر الصديقة الصينية التي تستخدم اسماً عربياً، وهذه عادة وجدتها في المغرب عند الطلبة الآسيويين، لكي يسهلوا أمر أسمائهم الصعبة التي تتبعثر في الفم قبل أن تُنطق، بأن يبدّلوها بأسماء عربية سهلة، الواحد منها من أربعة أحرف غالباً. مثلاً، كان لدي زميل كوري جنوبي، عرّفني إليه الأستاذ الجامعي الراحل، إدريس بلمليح، اسمه خالد. ظننت فعلاً أن هذا اسمه، ولكني مرّة دعوته إلى الشقة التي أسكن فيها في الرباط برفقة زملاء من اليمن، وسألته عن سرّ هذا الاسم، وكان جوابه صريحاً حين نطق باسمه الكوري، فوجدت أن من الصعب حفظه، لذلك تفهمت تصرّفه بسهولة. بالعودة إلى الصديقة الصينية التي كنت أتواصل معها عبر «ماسنجر»، وكانت إحدى طالبات الأستاذ الجامعي، محمود عبد الغني، الذي عمل في جامعة بكين أستاذاً زائراً. لم تنطق الفتاة ببنت شفة، حين التقينا أول مرة. ظلت في مقهى كلية الآداب في جامعة محمد الخامس صامتة تتفرّج على الداخلين والخارجين. وكنت أستفزّها للحديث، ولكن أغلب ردود فعلها كانت بالإيماءات، بالإضافة إلى الابتسام الذي يساهم في إخفاء عينيها الضيقتين. يكمن السبب ربما في أنها كانت تنطق الكلمات العربية بصعوبة، ولكنها حين كانت تكتب، ويا للعجب، كان قلمها سيّالاً ودون أخطاء، فيتدفق ذلك الحرص على الكتابة الصحيحة بالعربية، والانتباه للشروط الحاسمة للقواعد، ووضع كل كلمةٍ في مكانها المناسب من الإعراب والصرف. فبعد «لم» كل شيء يجب أن يكون ساكناً، والفاعل كتب له أبد الدهر أن يكون مرفوعاً، وظلت الممنوعات من الصرف تتحرّك بحريةٍ ورشاقةٍ بين أناملها.

لا نحتاج الآن إلى أكثر من لقاء عابر، لأن جعبة الحديث قد أفرغت سابقاً. لقاء عابر مختصر، وبكلام قليل ربما، هو الأنسب حالياً مع عصر السرعة. لن ترتبك، حين تقبض على هاتفك، وتبثّ فيه حديثاً طويلاً، بينما قد ترتبك، ولو قليلاً، إذا كان صديقك أو صديقتك أمامك. حتى تعابير الحب أجمل عبر الهاتف، ومن يعرف ربما أصدق كذلك. ولأني أمتهن كتابة القصة منذ أكثر من ثلاثين عاماً، فسأسرد هذه الحادثة الطريفة. حين كنت مقيماً في تونس، كنت أتصل بعائلتي من كشكٍ يمتلكه العم لحبيب. وهو شيخ سمح المحيّا. ولكني حين تعرّفت إليه أول مرة، ظننت أنه يطردني من دكان هواتفه، وهو دكان ليس فيه سوى هواتف عامة. حين دخلت من أجل المكالمة، طلب مني، بطريقة حازمة، أن أنتظر لأن

> لن ترتبك، حين تقبض على هاتفك، وتبثّ فيه حديثاً طويلاً، بينما قد ترتبك، ولو قليلاً، إذا كان صديقك أو صديقتك أمامك

المخادع كلها شاغرة. ثم فجأة قال لي: برّه برّه. ظننته يطردني فجأة من المحل، ولكنه تحرّك من مكانه وأخذ بيدي وهو يكرّر برّه برّه، ويقودني جهة مخدع الهاتف الفارغ. لأكتشف لاحقاً أن كلمة برّه تعني بالتونسي أسرع أسرع. رحل العم لحبيب، ولم تعد توجد مخادع هواتف، تلك التي كنا نبقى ننتظر أدوارنا أمامها لكي نتحدّث. عليك كذلك أن تُدخل عملة نقدية لكي تتكلم. وإذا انتهت النقود ستسكت شهرزاد عن الكلام المباح. مع زيادة المغتربين والاغتراب في العالم، يمكنك الآن أن تختصر الشوق والحنين، أن تُحادِث أمك مثلاً أو خالتك أو أختك. لن يكون الأمر معقداً، ولن يستدعي الأمر البكاء كما كان يحدث، حين تصل إليهم مكالمة منك وأنت البعيد دائماً. كانت خالاتنا وعمّاتنا حين يريننا يستقبلننا بالدموع. هذا الأمر لا بد شعر به عديدون من قراء هذا المقال المتواضع. والأمر الآن لن يحتاج لذلك كله، فالغروبات والمكالمات الواتسابية وغيرها من وسائل لمّ الشمل ستختصر حتى الحنين بين القارّات، وتقرّب لنا البعيد لتضعه في طبق من حياة. هذه البدائل التي طاولت المشاعر والأحاسيس، علينا أن نقرّ بها، هي أمر واقع يغيّر وسائله مع كل جيل.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**